بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحس قلقا بالغا على مستقبل الإسلام وأمته وأوطانه، فإن القوى المخاصمة له تطمع فى اسئصال حقيقته، واستباحة بيضته.

وهى ترى أن الظروف ملائمة لبلوغ هذه الغاية الهائلة..!

وعندما أنظر إلى الواقع الكئيب أجد أعداءنا يتقدمون بخطا وئيدة. وخطط صريحة حينا، ماكرة حينا آخر..

ولكنها خطط مدروسة على كل حال، محسوبة المبادئ والنهايات، لا مكان فيها للدعاوى والمغالطات، ولا للارتجال والمجازفات..!

أما نحن المسلمين فعلى العكس من ذلك كله..

وقد نكسب تقدما ما فى بعض الميادين وسرعان ما نفقد ثماره فى ميادين أخرى تكون خسائرنا فيها أبهظ..

وعندما أشعر بأن حلقات الحصار تضيق حول الإسلام، وأن مكاسب عداته تكثر على مر الأيام أتساءل: هل وعى تاريخنا الطويل أحوالا فى مثل هذه القساوة والخباثة؟

وأتردد فى الجواب قليلا!!

لقد سقطت الدولة الإسلامية قديما، وناوشها الأعداء من الشرق والغرب،. واحتلوا عواصمها، وألحقوا بها أفدح الخسائر.. ومع ذلك نهضت من عثرتها واستأنفت المسير، فلم لا تكون ظروف اليوم كظروف الأمس؟

وأقول لنفسى: لعل!! ثم أدرك أننى أغالط، لأسباب ينبغى شرحها إن أردنا مواجهة الحقيقة والنجاة من عواقب الخداع..

لقد أقام الاستعمار العالمى «إسرائيل» فى أرضنا من عشرين سنة وكان الإنجليز قبل ذلك بثلاثين سنة يخلقون الجو الذى يمهد لقيام «إسرائيل» ويستجلبون اليهود من كل بلد لينشئوا على أنقاضنا كيانهم الجديد..

وإذا كانت هذه السنوات الخمسون قد وعت الإعداد والتنفيذ في فلسطين، فإنها قد وعت أيضا التدويخ والتفتيت للعرب حول فلسطين، من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر كما يحلو للبعض أن يصف حدود الأمة العربية التائهة..!

ونشرح ما نعني فنقول: أن اليهود الذين بدأ استجلابهم من سنة ١٩١٧ لم يضيعوا ساعة عبثا..

لكأنهم تمثلوا بقول الشاعر:

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا

إن الحياة عقيدة وجهاد...!

فشرعوا لفورهم يحولون اليهودية إلى عقيدة بعث وبذل، وفداء وإخاء! ثم كرسوا أعمارهم لعمل موصول الجهاد بالليل والنهار...

وجدت أوربا وأمريكا تمدان جرثومة العدوان الجديد بما تشاء كي تضمن لها التفوق والنصر.

أما العرب فإنهم في أرضهم الواسعة كانوا يمضون منحدرين إلى القاع..

العقيدة في بلادهم وهي الإسلام تذيل وتنكمش، وروح الجهاد تناوشها اللذات المطلوبة والشهوات الغالبة.

الخمسون سنة التي أعقبت وعد بلفور شهدت إحياء لليهودية وللقتال من أجلها في فلسطين!!

وشهدت في الوقت نفسه إماتة للإسلام، أو إضاعة لتعاليمه وشرائعه، أو إهانة لحدوده وحقوقه، أو تنكرا لعنوانه وشعاره في الأرض العربية من المحيط إلى الخليج، مع حذف وصفي «الثائر الهادر» لحدود هذه الأمة العربية الجديدة التي خلقها البعثيون والقوميون!!.

تلك الأمة التي رأت – بدولها الأربعة عشر – أن توهي صلتها بالأمة الإسلامية الكبرى، لأنها أوهت صلتها بالإسلام ذاته..!

وجاءت النتائج كما رسم الاستعمار الذي أقام إسرائيل..

انهزم العرب أمام اليهود من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٦٧ في حروب متتابعة.

والسبب واضح فإن روح اللهو لا تغلب روح الجد، وفاقد الإيمان لا يقاوم من يتحركون بيقين راسخ..

والواقع أن اليهود كسبوا معاركهم ضدنا منذ أفلح الغزو الثقافى فى زحزحتنا عن ديننا، وتهوين قيمه ومثله وأحكامه أمام أعيننا، ومنذ أفلح فى خلق شباب يقاد من غرائزه الجنسية، ويغرى بعبادة الحياة الدنيا وينسى ربه وآخرته..

إن مصدر خشيتى على الإسلام هو موقف العرب من دينهم!

إن العرب يريدون أن يدخلوا بغير دين فى معركة دينية..

ومع أن مطارق الهزيمة التى وقعت على أم رأسهم كانت كفيلة بإزالة هذا الوهم إلا أن عملاء الشيطان يستميتون فى مكافحة هذه اليقظة، والحيلولة دون اعتناق العرب للإسلام، كلاً لا يتجزأ..

ولا يستغربن أحد هذا التعبير!!

فإن العودة إلى الإسلام لا تُقبل إذا كانت كلمات تمرق من الأفواه ولا علاقة لها بالواقع الفردى والاجتماعى..

لكى تكون العودة إلى الإسلام صحيحة لا بد من أمور ثلاثة:

(أ) هيمنة التربية الدينية على مراحل التعليم كلها.

(ب) رد جميع القوانين إلى الفقه الإسلامى، وربطها ربطا موثقا بالشريعة الإسلامية.

(جـ) تحكيم الإسلام فى التقاليد الاجتماعية السائدة ومحو ما يخالف الدين، وإثبات ما يلائمه.

ويوم يحس جماهير العرب بأن أمورهم تسير إلى هذه الوجهة فسوف يندفعون كالسيل وراء حكوماتهم، ويومئذ تماع إسرائيل كما يذوب الملح فى الماء، فلا يبقى لها شكل ولا موضوع..

لقد تأملت فى الصورة التى تمت بها هزائمنا خلال العشرين سنة الأخيرة فرأيت ما يدعو إلى الدهشة..

كنا أكثر من عدونا عددا، وأقوى عدة..

ولو فرضنا جدلا، أننا كنا مثله أو دونه قليلا فإن من المقطوع به أننا لم

نحسن القتال بما حملنا من سلاح، ولا ثبتنا به المدة المناسبة، ولا آذينا به عدونا الإيذاء المستطاع..

كانت هزائمنا فريدة فيما تتركه من انطباعات مخزية.

إننا هزمنا أنفسنا، وقلدنا خصومنا شرفا فوجئوا به..

وما تقول فى قوم ينبهون إلى أنهم قد يهاجَمون يوم كذا.. فإذا هم فى هذا اليوم غافلون أو نيام، أحرقت طائراتهم على الأرض، وبوغتوا بما شل حراكهم خلال ساعات، وأكسبوا اليهود دعاوى عريضة، وتركوا جباهنا تقطر من الحياء والذل!!

كانت أسباب الهزيمة خُلقية، ودينية قبل كل شئ وبعد كل شئ.

ومع ذلك فإن العرب ابتلوا بمن يكذب عليهم يوم محنتهم فيتحدث عن تفوق اليهود العسكرى ومهارتهم «التكنولوجية».

أى تفوق وأية مهارة؟؟

وتذكرت قصة الريفى الذى جاء إلى القاهرة، واشترى الترام من أحد المحتالين..

إن هذه القصة لا تدل على عبقرية المحتال قدر ما تدل على أن المشترى مغفل كبير.

والذين يرجعون هزيمة العرب أمام اليهود – خصوصا فى المعارك الأخيرة – إلى عبقرية اليهود إنما يريدون مواراة قصة استغفال محزنة..

إنهم يريدون أن نذهل عن عيبنا كى تتكرر المأساة نفسها..

لقد علم القاصى والدانى أن اليهود امتدوا فى فراغ، وأن رجالنا يوم اللقاء كانوا فى سكرتهم يعمهون، وصدق القائل:

رب أصباح محزنات يتركها المرقص اللعوب!!

فهل نعمى عن علتنا المهلكة ثم ننسب النتائج إلى الوهم، ونزعم أن اليهود غلبونا لعبقريتهم الحربية وتفوقهم فى كذا وكذا...

يقول التاريخ أن شبيها لهذه المأساة وقع من تسعة قرون، فقد انهزم العرب أمام الحملة الأولى للصليبيين دون سبب معقول!

كان الصليبيون قد هبطوا من أوربا إلى الشرق الأوسط وهم يجرون

أقدامهم جرا، وبلغت بهم المجاعة إلى حد أن أكلوا الجيف، ولم تكن ظروفهم تمكنهم من كسب أى معركة.

ومع ذلك فقد هزموا العرب الموفورى القوة والعدة والصحة والشبع، وذبحوا سبعين ألفا منهم فى القدس!!

لماذا؟ لأن العرب كانوا فى حال من الفرقة والبطر والفسوق والغفلة تحرمهم من رعاية الله، وتبعد عنهم النصر القريب..!

كذلك انهزمنا اليوم، وبين أصابعنا من أسباب الغلب ما لو سانده الإيمان الصاحى، والحماس الصادق، لروع اليهود ومن وراءهم...

لقد سمعت رجلا يعلق على ضرب اليهود لمطار بيروت تعليقا مرا، يقول: أينزلون، ويحرقون الطائرات، ويمكثون فى المطار ريثما ينفذون مرادهم، ثم يصعدون دون أن يفقد جندى منهم نعله!!

لو أن مع رجل واحد مسدسا لألحق بهم بعض الخسار!!

لو أن هناك رجالا يحملون العصى فقط ما عاد اليهود سالمين على هذا النحو!! لكأن القوم كانوا فى نزهة!!

يا حسرة على العباد، أين الرجال؟؟

والجواب: ضاعوا مع ضياع الإيمان!!

إن الدين بالنسبة لنا نحن المسلمين ليس ضمانا للآخرة فحسب إنه أضحى سياج دنيانا وكهف بقائنا.

ومن ثم فإنى أنظر إلى المستهينين بالدين فى هذه الأيام على أنهم يرتكبون جريمة الخيانة العظمى، أنهم – دروا أو لم يدروا – يساعدون الصهيونية والاستعمار على ضياع بلدنا وشرفنا ويومنا وغدنا..!!

فارق خطير بين عرب الأمس وعرب اليوم.

الأولون لما أخطأوا عرفوا طريق التوبة، فأصلحوا شأنهم، واستأنفوا كفاحهم، وطردوا عدوهم..

أما عرب اليوم فإن الاستعمار الثقافى أحدث تخريبا شديدا فى ضمائرهم وأفكارهم، وربما رأيت الواحد منهم يبلغ الأربعين أو الخمسين من عمره ولا

يعرف كيف يصلى! أما حصيلته من سائر المعارف الإسلامية فتتذبذب عند درجة الصفر!!

وهذا الجيل الفارغ القلب واللب صيد سهل للمذاهب المادية أو للمبشرين وسماسرة الغرب، لأنه - مهما كبرت الوظائف التى وضع فيها لم يتجاوز مرتبة الطفولة من الناحية الدينية.

وقد يعترض نفر من هؤلاء على العودة إلى الإسلام اعتراضا مكشوفا. أو مطويا، إما لأنه فاسد النفس، أو لأن الجهل أتاهه وحيره.

يقول أحدهم: أن العودة إلى الإسلام سوف تغضب المسيحيين العرب!

قلت: لماذا يغضبون؟ إننا لا نسخط على تمسكهم بالنصرانية ولا نعترضهم فى ذلك..

ومن الذى قال إننا نرضى الآخرين بترك ديننا؟ وإذا كان الآخرون لا يرضون إلا بذلك فمن الذى يجعل لهذا الرضا قيمة؟

ويقول ثان: إن العودة إلى الإسلام سوف تغضب الشيوعيين وهم الذين يمدوننا بالسلاح!!

قلت: إن الشيوعيين تهمهم مصالحهم، وهم إنما يسوءهم أن نأخذ أسلحتهم ونسلمها لليهود! فإذا تعاملوا مع رجالنا يقدرون اليد المسداة، ويحسنون النكاية فى عدوهم كان هذا خيرا لهم ولنا..

ويقول ثالث: إن أمريكا تساعد إسرائيل بدوافع صليبية مطوية فإذا أعلنا إسلامنا وتشبثنا بوحيه أسفرت عن وجهها وأعلنت علينا حربا مكشوفة..!

قلت: إن أمريكا لم تدخر جهدا فى تغليب اليهود علينا، ولو أنها فعلت مع إسرائيل ما فعلته فى فيتنام ما بالينا بها لو كنا أصحاب إيمان..

ويقول رابع: لا مانع من العودة إلى بعض الإسلام، أما العودة إليه كله فصعبة، وقد تغير الزمان..!!

قلت: الكفر ببعض القرآن كفر به كله، والإسلام هو الحل الأوحد لجميع مشكلاتنا المعاصرة، وليس هناك عائق أمام عودتنا لديننا لو أردنا..

إن الصعوبة المدعاة هو فى نفوسنا نحن..

تلك النفوس التى ضللها الغزو الثقافى الحاقد على الإسلام.. فجعلها تحسب حسابا لكل شئ إلا لله وحده ..!!

إن العراك بيننا وبين بنى إسرائيل سوف يمتد سنين عددا، فإذا أحببنا أن نذوق حلاوة النصر فالطريق إليه بينة..

أما إذا كررنا أنفسنا القديمة، وأساليبنا القديمة، فلن نحصد إلا ثمرات الغرور، وما أبشع مذاقها وأمره!!

إنه ليحزننى أن أرى العرب يتخلون عن رسالتهم العظمى.

أو يأخذونها بضعف واسترخاء.

أو ينفذون ما يحلو لهم ويهملون ما لا تهوى أنفسهم.

أو يخشون الناس ولا يخشون الله..

إن عقبى ذلك هو ما بلونا مبادئه، ولا نريد أن نجر بواقيه..

إنا نجأر بهذه الصيحات لعلها تنفع فى مدافعة ما لا نطيق من بلاء.

وقد كنت - بحاسة المؤمن الغيور - أرصد أحوال الأمة العربية قبل الهزيمة وبعدها، فأشعر بمدى قربها أو بعدها من دينها، ومدى قدرة التيارات الأجنبية على التطويح بها هنا وهناك..

وكلما قرأت كلمة ضالة، أو سمعت تعليقا منحرفا، أو تدبرت توجيها زائفا أمسكت [1] بالقلم لأرد فى نطاق ما أستطيع قوله وعمله..

غير أننى لم أتبين إلى هذه الساعة انعطافا حقيقيا نحو الإسلام يعيد بناء الأمة العربية داخل إطاره الواضح.

وذاك سر إشفاقي وقلقي.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾، ﴿رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٣ - ٩٥]

الفقير إلى الله تعالى

محمد الغزالى

---

(١) الفصول المنشورة هنا بعض ما أديت به واجبى كاتبا أو محاضرا، وقد رأيت جمعها فى سياق متقارب ميسور التناول كى تخدم القضية التى يجب نصرها ودعمها، استبقاء لديننا وأمتنا.

obeikandl.com